ـ صورة الآخر في الشِّعر الثّوري لدى مفدي زكرياء.

د . الحاج جغدم
(جامعة حسيبة بن بو علي-الشلف)

الملخص :
إنّ عظمة ثورة التحرير الكبرى (1954- 1962) تعود إلى عظمة أبطالها الصّناديد، ورجالاتها العظام الذين أشعلوها ناراً على الآخر، فكانت أعظم ثورة عرفها العالم خلال القرن العشرين، حتى أضحت نموذجاً لحركات التحرر في العالم المعاصر، ما دفع بالمؤرخين لاعتبارها ثورة إنسانية، لأنّها تعدّت حدود الجزائر لتصبح مكسباً للحضارة الإنسانية.

في ضوء ذلك، يتأسس انشغالنا في هذا المجال على إبراز صورة الآخرّ كما صوّرها الشاعر مفدي زكرياء، مبرزين أشكالها في الخطاب الشعري الذي يحمل دلالات فضح الآخر على حقيقته، متوقفين عند صورة البلد المحتل "فرنسا"، فصورة السياسي الذي هندس خطّة الاحتلال، لنصل عند صورة الجندي الذي ترجم الغزو على أرض الواقع.

ولمّا كان مقصدنا من هذا البحث هو "الآخر" في الشعر الوطني الثوري، كان لزاماً علينا أن تتبّع استقراء النّصوص وتحليلها لاستكشاف تلك الصّور السلبية التي إرتسمت ملامحها في المتون الشعريّة لدى شعرائنا عامة، وشعر مفدي زكرياء خاصة، وهذا في نظر كلّ الشعوب التّواقة إلى الحرّية التي سلبت منها، لينقلها لنا الشاعر في قوالب فنية وفكرية.

Resume
The greatness of the Great Liberation Revolution (1954-1962) is due to the greatness of its great heroes، the great men who set fire to each other. It was the greatest revolution the world had ever known during the 20th century. It became the model of liberation movements in the modern world. ، for this reason، the historians consider it as a humanitarian revolution، because it exceeded the borders of Algeria to become a gain for human civilization

Therefore، our concern in this area is based on displaying the image of the other as portrayed by the poet Mafdi Zakaria، highlighting its forms in the poetic discourse that bears the connotations of exposing the other to its reality، stopping in the image of the occupied country "France"، the image of the politician who engineered the occupation plan، Let us arrive at the image of the soldier who translated the invasion on the ground

Since our purpose in this research is "the other" in the poetry of the National Revolutionary، we had to follow the extrapolation of texts and analysis to explore those negative images characterized by the features of poetry in our

poets in general، and felt Mfdy Zkariah special، and in the eyes of all peoples eager to freedomWhich was stolen from them، to be transmitted to us by the poet in artistic and intellectual molds

Keywords : Revolution، the Other، the Speech، Image .

أولا: صورة "الأنا" و "الآخر" في المقاومة الجزائرية.

يرى الكثير من الدارسين أن الموقع المتميّز الذي تحتله الجزائر بين أشقائها وجيرانها، فرض على الذات الجزائريّة علاقات خاصّة جداً ومعقدة كثيراً، حيث تلخصّت في مدّ وجزر بين "الأنا" الذات الوطنية، و "الآخر" الذات الأجنبيّة، لكن تلك العلاقة كانت معقدة ومؤثرة في كثير من الأحيان، لأنّها لم تكن مبنية على أسس إنسانية طبيعية تمليها ظروف الجوار، أو مبادئ التجارة، بل كانت مؤسسة على عنصر الاستقلال والاستحواذ والهيمنة، وذلك ما زرع داخل الذات الجزائرية بذور الخوف[1].

وعلى هذا الأساس، فإنّ ثنائية (الأنا، الآخر) بوصفها مقولة « شاعت لدى الفلاسفة منذ اليونان مروراً بالفلسفة العربية الإسلامية ووصولاً إلى الفكر المعاصر، ومازالت إلى الآن ظاهرة تستحق التأمل والدّرس، ولو أنّ الرؤية الغالبة إستمرت تحصر صورة الآخر في الأجنبي المستعمر أوفي الغرب المتفوق الذي يظهر في المحصلة على أنّه الاستعمار القديم في ثوب جديد. فهي صورة تحمل نقوشاً من خلفية تاريخية لا وجه فيها للجمال بقدر ما تثير الكراهية والنفور وتدعو إلى الحذر من الآخر، الغريب»[2].

إنّ الذات الوطنيّة التي إرتسمت معالمها في الأفق بعد ثورة الفاتح من نوفمبر، إنّما جاءت نتيجة تلاحم "الأنا" مع الإرادة الشعبية التي كسّرت قيود الجمود والتقاعس، ولقد أفرز هذا التزاوج أنواعاً من المقاومة، منها العسكريّة[3]، ومنها الفني بشتى أجناسه[4] .

وعليه، فإنّ ما يهمنا في هذا المجال، الجانب الفني "المقاومة بالكلمة، إذ كان شعر المقاومة الوطنية عند مفدي زكرياء خلال مرحلة الثورة، يترصد الصراع والمواجهة بين "الأنا" المغيب في وطنه الذي يتجلى في الإنسان والمكان والحيوان، مقابل "الآخر" الذي ينعم في أرض ليست أرضه، ويتمظهر في صورة البلد المحتل، والسياسي المخادع، وصورة الجندي، أنها الملامح البارزة لدى الطرفين المتصارعين، كما تراءت أمام عيني الشاعر، ونقلها إلينا بأدواته الفنيّة.

ثانياً: صورة الآخر/ المحتل (الفرنسي).

---

[1] -ينظر: محمد بشير بويجرة، تجليات الأنا والغبن في الخطاب الشعري، أعمال المهرجان الوطني الثاني للشعر الشعبي، الأغواط، نوفمبر 1999، ص 41.

[2]- مخلوف عامر: الأنا والآخر- انفتاح وانغلاق نموذجان: "علي الحمامي" و "مالك بن نبي" – مجلة الموروث، جامعة مستغانم، ع2، ماي 2013، ص 103.

[3] - ينظر: يحي بوعزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 45.

[4] - ينظر: محمد بويجرة بشير، تجليات الأنا والغبن، ص43.

يبدو أن صورة "المحتل الفرنسي" في شعر مفدي زكرياء الثوري، قد اِتسمت بصفات لا يقدم على اقترافها إلاّ الماكرون الذين في قلوبهم البغضاء والحقد لشعب كان ضحيّة مؤامرة بطلها الرجل المريض "الدولة العثمانية"، وقد تجلت في الصورة السياسية والاجتماعية[5].

1-الصورة السياسية:

كانت السياسة الفرنسية في الجزائر ما بين (1830- 1962) على تحطيم البنية التحتية للمجتمع الجزائري، متبعة في ذلك سياسة الظلم والطغيان والتسلط، القائمة على تغييب العنصر الجزائري، واستعمال أبنائه المستضعفين في الأعمال الشاقة، فاتحة المجال أمام المعمرين والبورجوازيين الفرنسيين لقطف خيرات هذا الوطن[6].

ولتحقيق هذه المآرب، في ظل إسكات الشعب، أقدم المستدمر على انتهاج سياسة المماطلة والوعود الكاذبة التي كثيراً ما وقف عندها الشعر مقتفياً أثرها، مبرزاً مظاهر الاستبداد بأشكاله المختلفة التي سلطت على شعبنا، والشاعر مفدي زكرياء من الشعراء الذين تألموا لها، فراح يظهرها في شعره الوطني الثوري، تحت مظلّة الصور السلبية

أ-صورة السلب ونهب الخيرات:

تعد ظاهرة السلب والنهب مظهراً من مظاهر السياسة الفرنسية التي جسدت على أرض الواقع منذ أن وطأت أقدام المستدمر أرض الوطن، وذلك بسنّ قوانين جائرة في حق السكان الأصليين كتجريد الأراضي ونهب الخيرات[7] متبعاً أساليب وحشية في انتزاعها من أصحابها، حتى لو كلفه ذلك إراقة الدماء، وسنحاول رصد معالم هذه الصورة بملامحها الآتية:

***/الطمع وسلب الخيرات:**

يبدو أن احتلال فرنسا للجزائر، لم يكن لدواع ثأرية لقنصلها بعد حادثة المروحة، وإنّما طمعاً في النهب والسلب لخيراتنا[8]، لهذا وقف الشّاعر في القصيدة الموسومة بـ " ماذا تخبئه يا عام ستينا" عند هذه الحقيقة، منبهاً إلى أن الجزائر وقعت بين يدي "قطاع " تسلطوا على الشعب لينهبوا ويسلبوا ويلتهموا خيراته، متمنياً أن يأكلوه زقوماً. يقول مفدي زكرياء[9]:

وفي الجزائر قطاع قد اِلتهموا خير الجزائر زقوماً وغسيلنا ولعل القصيدة الموسومة بـ "تعطلت لغة الكلام" تنهض لتصف لنا في موطن من مواطنها حالة الطمع، وتكشف حقيقة المستدمر الذي طاب له أن يأكل حبوبنا ظلماً وعدوانا، وتسكره كرومنا، داعياً إياه إلى ترك هذا الطبع اللّئيم. يقول مفدي زكرياء[10]:

يا معشر المستعمرين تربصوا ودعوا المطامع ... فالسحاب جهام
إن أثخنتكم في القديم حبوبنا وبطرتم ... فعلى الحبوب ســــــــــلام

---

[5] - ينظر: محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، (د،ت)، ص 259.
[6] - ينظر: تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 90.
[7] - ينظر: عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 31.
[8] - ينظر: محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 323.
[9] - مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص 150.
[10] - م- س، ص 80.

أو أسكرتكم بالمدام كرومنـــا لم يبق في هذي الكروم مـــــــــــــدام

وهنا، نسجل رؤية إحيائية يحاول الشاعر أن يعانق فيها الماضي – التراث بالحاضر وفق إستحضار بيت لابن الفارض*، على نحو ما يصطلح في النقد الأدبي المعاصر بالتناص.

وإذا كان مفدي زكريا قد أقرّ – في النص السابق- أن المستدمر في الشمال قد ظفر بحبوبنا وكرومنا بسبب أطماعه المتزايدة، فإنّه في قصيدة "فلا ... حتى تستقل الجزائر" حثها على أنّ سعيها في الظفر بالصحراء الجزائرية، طمعاً في ثرواتها الباطنية أمر فاشل وعواقبه بالنسبة لجندها قبور تحفر في بطن الصحراء، يقول مفدي زكرياء[11]:

فرنسا دعي الأطماع فالسعي فاشل "فكل فرنسا" لا نبيع بها صحرا؟

وإنّ تمنيتم ثروة في بطونهـــــــــــــــا حفرنا لكم في بطن صحرائنا قبرا

وإنّ إستظهار مفدي زكرياء لصفة الطمع التي سكنت كيان الغاصبين، جعلته يكرّرها كلما كان الحديث في هذا السّياق وما قاله الشاعر في القصيدة الموسومة بـ "وتعطلت لغة الكلام" لدليل على أنّ حرص الشاعر على مقاومتها بسهام المنية، مؤكداً على أنّ أرزاق الجزائريين، وقف على أبناء الوطن الجريح، يقول الشاعر[12]:

فلنا على عبث السياسة ثورة ولنا لرد الطّامعين سهام

أرزاقنا وقف على أبنائنـــــــــا لم يعطها لسواهم القسّام

***/الجوع:**

ذلك، وقد كان الجوع نتيجة حتمية لسياسة السلب والنهب التي إنتهجها الفرنسيون في الجزائر، بعد وقوعها في يدهم*. ويمكننا أن نقف عند حالة الوضع المؤلم من خلال هذه الشهادة . «وعندما دخل الاستعمار، كان دخوله كالعاصفة الهوجاء التي دمرت كل شيء، فالأرض سلبت من الجزائريين بدون تمييز، والإستعباد ساد الجميع بلا استثناء، وانهارت الأرستقراطية السياسية والدينيّة التي قادت الحرب ضد الفرنسيين. وبسقوطها عجزت تركيبة المجتمع عن الصمود أمام»[13] الهجمة الكولونيالية فتفككت، وإفتقد الشعب قيادته، فضاع وإرتمى في أحضان الجوع.

لقد كان شعر مفدي زكرياء دوماً في طليعة الشعر الذي عكس جانباً من تلك الصورة القاتمة، فوصف حالة الجزائريين وهم تحت البؤس يفتك بهم، فلاحظّ لهم إلاّ التشريد مقابل حياة النّعيم والرّخاء لدخيل محتل، وذلك في قصيدة "الذبيح الصّاعد"، يقول مفدي زكرياء[14]:

---

[11] - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 314.

[12] - م. س، ص 314.

* يقول ابن الفارض: شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

* لقد تمثلت هذه السياسة في سن قوانين جائرة، كقانون سنة 1832 القاضي بملكية الدّولة الفرنسية لكل أرض ليست لها عقود، وقانون سنة 1944 الذي يتيح للمعمرين من امتلاك أرض الأوقاف.

[13] - أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 81.

[14] - مفدي زكرياء: اللّهب المقدس، ص16.

ويجوع اِبنها، فيعدم قوتـــــــاً وينال الدّخيل عيشاً رغيداً؟؟
ويبيح المستعمرون حماها ويظل اِبنها، طريداً شريداً؟؟

بات من الواضح أنّ الإستدمار الفرنسي، قد تيقنّ بأن إخضاع الشعب الجزائري تحت رحمته، لابّد أنّ يمر عبر اِنتهاج سياسة التجويع والتجهيل، لهذا أقدم على مصادرة الأراضي والممتلكات ووزعها على المعمرين، ليقطع على الأهالي سُبل العيش، بينما يعيش اللقيط حياة الثراء والبذخ[15].

ولعل قصيدته الموسومة بـ " شاكر الفضل ليس يُعدم شكراً" تشخيص لوضعية الجزائر التي أتاها الفساد من طرف غاصبي الحق، حيث الذلّ والهوان والجوع والعراء نتيجة تعرض خيراتها للنهب والسّرقة، أمام نواب ليسوا سوى بضاعة تُباع وتشترى، يقول[16]:

واِستذلت رقابها فتراهـــــــــــا وهي في أرضـها تجوع وتعرى
وأُستبيحت أرزاقها ليس إلاّ "قيصر" يملك الحياة و "كسرى"
وأُسترقت نوابهـــــا ليس إلاّ ذممٌ كالدّمى، تُبـــــــــاعُ وتُشْترى

وإذا كان الشعر الإحيائي العربي في الجزائر، يُعالج هذه الصورة بأسلوب يغلب عليه البكاء والشكوى من المستدمر. فإنّ الشاعر مفدي زكرياء يتجاوز هذه الثنائية إلى التعبير عنها بأسلوب كله ثوريّة بالدعوة إلى مقاومة المحتل، وفكّ رقاب الجزائريين من مستغل جاء لينهب خيرات هذا الشعب، ويسلب ثرواته.

***/الفساد والتخريب والتشريد :**

إنّ المجتمع الذي يتعرض كيانه للسلب والنّهب، تنتشر فيه مظاهر الفساد والتخريب فيلحقه التشريد، وفي هذا السياق سنتوقف عند الخطاب الذي يتضمن ذلك عند مفدي زكرياء، ليبرز هذه الصورة في قصيدته الموسومة بـ "سنثأر للشعب". يقول مفدي زكرياء[17]:

سنثأر للبيت الذي كان آهلاً فرجّت به الألغام تسحقه سحقاً

إذا كان هذا البيت يفصح عن صورة تخريب البيوت بتهديمها وهي آهلة بالسكان عن طريق تفجير الألغام. فإنّه في البيت اللاّحق يبرز صورة التشريد الناجمة عن تخريب البيوت وحرقها، وليصبح سكان القرى والأرياف بدون مأوى. يقول مفدي زكرياء[18]:

واللاجئين التاركين بيوتهم وما ترك التخريب فيها، ولا أبقى

لقد اِمتدت يد العدوان إلى الأكواخ والقرى والدّواوير لتدمرها، عن طريق إلقاء الزيوت الحارقة مشتعلة فتأتي عليها، فيحترق كلّ شيء بداخلها، يقول مفدي زكرياء[19]:

سنثأر للأكواخ والدور والقرى يهمشها "النابالم" يحرقها حرقاً

وليس بعيداً عن المكان الذي أتته يد الغدر فجعلته ركاماً، يدعونا الشاعر أن نسأل المدارس التي لا يختلف حالها عن حال القرى بعد أن دكتها آله المستعمر دكّاً، وأن ننظر إلى الأحرار المخلصين قبروا. يقول مفدي زكرياء[20]:

---

[15] - مصطفى بيطام: الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص 120.
[16] - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 281.
[17] - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص200.
[18] - م. س، ص 201.
[19] - م.س، ص 201.
[20] - م. س، ص 138.

وسل المدارس كيف دك بناؤها وانظر إلى الأحرار فيها تقبر

يبدو أن تلك المطامع، قد سيطرت على وعي المستعمر، فجعلته يعبث في الأرض فساداً بسبب سياسة النّهب والسلب التي أقدم على تطبيقها في أرض الواقع، مخلفة صوراً غير إنسانية "الجوع والعراء والفقر والتخريب"، ليكون شعر مفدي زكرياء بمثابة آلة تصوير نقلت إلينا جرائم المستعمر البشعة، متوعداً بالثأر لما اِقترفه في حق الشعب.

***/الاِضطراب وفساد الرأي:**

لقد عكس شعر مفدي زكرياء صورة الفساد في الرأي والاضطراب في الأحوال العامة، إذ سجل شعره التمرد الذي قادته شر ذمة من المعمرين ضد السلطة المركزية، بعد أن تيقنت من أنّ الجزائر التي اِستعبدت منذ سنة 1830. سائرة نحو تحقيق الاستقلال الوطني.

ويتجلى ذلك في القصيدة المعنونة بـ " إلى الذين تمردوا" حيث رماها الشاعر بفقدان رشدها وصوابها تارة وبالجنون والخبال تارة أخرى، يقول الشاعر[21]:

فقدت فرنسا رشدها وصوابهـــا وغدت تسجل في الأنام ضلالها

وافضح مع الأيام جمهوريـــــــة كشف الزّمان جنونها وخبالهـــــا

***/الطغيان والظلم:**

كثيراً ما يعتقد الغزاة أن إحكام السيطرة على شعب، بعد تسليط كل أنواع الاستبداد والاضطهاد كافياً لإخضاعه ظلماً وطغياناً، لكن الشعب وعلى لسان شاعر الثورة مفدي زكرياء يقف عند هذه الصورة، ليكشف الطغيان والظلم والبغي، داعياً إلى تحرير الوطن من الغاصبين وتحطيم الطّاغين والظالمين. يقول الشاعر[22] :

يا ثورة التحرير صوني الحمى وحرريه من يد الغـــــاصبين

شقي الطريق فوق سبل الدما وحطمي الطّاغين والظالمين.

ومفدي زكرياء، عندما يتناول صورة الطغيان، فإنه يتناولها من منطلق أن الأرض زلزلت زلزالها اِحتجاجاً على طغيان المستدمر وتجبره وتظلمه، وكأنها ترتبها تنتقم للمقاومين الأحرار على حساب جنود الاِحتلال، يقول مفدي زكرياء في القصيدة الموسومة بـ " وتكلم الرشاش"[23]:

أم أرض ربك: زلزلت زلزالها لما طغى في أرضه، المستعمر؟

ويبلغ الشاعر أوج تأثره، حينما راح يفصح عن العبث والفساد والتعسف والظلم والجهل والفقر الذي لحق الجزائر بسبب " تسلط الطغاة والبغاة، يقول مفدي زكرياء في القصيدة الموسومة بـ " شاكر الفضل ليس يُعدم شكرا"[24] :

---

[21]- مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 157.

[22] - م. س، ص 91.

[23] - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 134.

[24] - م. س، ص 281.

عاث فيها الطغاة عسفا وظلماً ورماها البغاة جهلاً وظلماً

وبعد هذا الثأر، وقف الشاعر في القصيدة الموسومة بـ " أكذوبة العصر" ليؤكد للطاغين والعابثين الأشرار أنّ الحق سيعلو فوق الباطل وينتصر رغم أنوفهم. يقول مفدي زكرياء[25] :

معسكر الحق أنّ الحق منتصر رغم الطغاة، ورغم العابث الأشر

وفي مقابل ذلك، أو نتيجة لكل ذلك، فإنّ الشعب الجزائري ثار على الظلم وصانعي الفساد، لينعم بالحياة الكريمة في هذا الوجود. يقول الشاعر[26] :

ثرنا على الظلم، لا نلوي على أحد لا شيء في الكون، دون العز يرضينا

إنّها رسالة الشعر التي وحدت، من أجل أن تكون في خدمة الشعب والوطن، كيف لا وهو الذي أصبح شكلاً من أشكال المقاومة[27]، يفتك بالطاغين المتجبرين ويرجم شياطين الأنس. يقول مفدي زكرياء[28]:

وكم صرعنا بها في الأرض طاغية وكم رجمنا بها في الأنس شيطانا

ب/ صورة القتل والمذابح:

تعد أحداث 8 ماي 1945 الشهيرة، بمثابة الشرارة الأولى لثورة الشعب التي مكنته من خوض غمار حرب شهد لها العدو قبل الصديق، فكان إحساس الشعراء بحجم المأساة الوطنية وعنفها كبيراً، ما جعلهم يخترقون الآني للاِرتماء في أحضان المستقبل البعيد حتى اِرتفعوا إلى مستوى النبوءة[29].

يقول الدكتور غالي شكري في هذا الصدد: « ولقد آن الأوان لأن نفرق بين الأدب الذي يقاوم قبل حدوث المحنة، وهو الأدب الذي يرتفع إلى مستوى النبوءة، والأدب الذي يقاوم أثناء المعركة وبعد الهزيمة أو النكسة، والأدب الذي يؤرخ للأزمة بعد اِنتهائها بوقت طويل أو قصير ... »[30].

ونحن، نعتقد أن ما ذهب إليه الناقد غالي شكري ينطبق إلى حد بعيد مع ما جاء في شعر مفدي زكرياء الوطني المقاوم، حيث تنبّأ لوقوع الحدث، الثورة سنوات قبل اندلاعها، وواكب مسيرتها مهللاً لانتصارات "الأنا" وفاضحاً صور التقتيل والمذابح التي أقترفها "الآخر" في حق شعب أعزل لا ذنب له سوى أنّه رفع راية المقاومة.

***/القتل والمذابح:**

القتل من الوسائل التي يعمد المستدمر إلى إتباعها، من أجل الحصول على معلومات عن الثوار، واِنتزاع حقائق عن الثورة، ولتحقيق ذلك يقصد فلذات الأكباد من الرضع، فيضع فوهة الرشاش في أفواههم، ويفرغ ذخيرتها في أحشائهم. يقول مفدي زكرياء[31] :

سنثأر للطفل الرضيع وقد غدا وفي – فمه الرشاش- يحسبه رزقاً

---

[25] - م. س، ص 142.

[26] - م. س، ص 151.

[27] - عبد المالك مرتاض: أدب المقاومة، ج1، دار هومة، الجزائر، 2003، ص 180.

[28] - م. س، ص 290.

[29] - عبد المالك مرتاض: أدب المقاومة، ج2، ص 275.

[30] - غالي شكري: أدب المقاومة، دار الآفاق، بيروت، ط2، 1979، ص 13.

[31] - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 200.

يتدرج مفدي زكرياء – في بيان صورة القتل- ليعرج على وصف جرائم المستدمر، وذلك بإبراز مشاهد قتل النساء الحوامل عن طريق شق بطونها، والمرضعات تبتر أثداؤهن. يقول مفدي[32]:

وللجليات الحور شقت بُطُونُها وللمرضعات للغيد أثداؤها تُلْقَى

يبدو أن المستعمر قد تفنّن في إبداع أشكال القتل المختلفة، فمن الموت في ساحات الوغى إلى الموت شنقاً، ومن الموت في السجون إلى الموت في المنفى، ومن الموت بقطع أحد الأعضاء إلى الموت، بمداهمة الآمنين العزّل في بيوتهم التي يُساقون منها إلى حيث الإعدام. يقول مفدي زكرياء[33]:

وللآمنين العامرين ديارهم يسوقهم للموت جلاّدهم سوقاً

لمّا اِقتربت شمس الحرية من الطلوع، وأحسّ المستدمر بأنّ الثورة التي اِختارها الشعب لتحرير الكيان الوطني، زاد جنونه حتى صار لا يكتفي بقتل أفراد معينين ممن أطلق عليهم بالثوار، بل اِمتدت يده إلى كافة المواطنين ليرتكب في حقهم المجازر. يقول مفدي زكرياء[34]:

وفي الجزائر للتقتيل مجزرة راحت بها المهج الحرى قربينا

مجازر رهيبة تلك التي اِرتسمت معالمها في شعر مفدي زكرياء الوطني الثوري، والتي كشفت الغزاة الطامعين على حقيقتهم، وعرّت الإبادة الفردية والجماعية القائمة على تصفية الوطنيين المخلصين لقضيتهم حتى ولو تعلق الأمر بملاحقة الأجنة وهي في أحشاء أمهاتها، فيقضي عليها، وهي ما تزال في عالم الغيب، هذا ما عبّر عنه الشاعر في قصيدة " وليد القنبلة الذرية"، يقول الشاعر[35] :

قذفته إلى الحيـــــــاة، يد الموت فلم يقض في الحياة ربيعـــــــــــــاَ

وسقته السّموم، في عالم الغيـــــ ب، فرنسا ... فجاء شكلاً مُريعا

يقول عبد الملك مرتاض: « والإستعمار الفرنسي في الجزائر بوجه خاص عات في الأرض فساداً، وجلب على الشعب الجزائري بالتذبيح والتقتيل، وصبّ عليه أسواطاً من العذاب والنكال حتى فقد كرامته وضيّع عليه الاستعمار إنسانيته فأمسى مجرّد شعب مستعبد يعيش تحت قيود الذلّ ...»[36] .

وركحاً على هذا الأساس، قام شعر مفدي زكرياء ليصف ما اِرتكبه المستدمر من جرائم ومظالم، وما ملأ به الأرض والسّماء من جنود، وما نشره من رعب وفظائع، يقول مفدي زكرياء[37] :

يا فرنسا اِمطري حديداً ونـــــــاراً واملئي الأرض والسماء جنوداَ

واضريمها عرض البلاد شعاليـــــ ل فتغدو لها الضعـــــاف وقوداَ

---

[32] - م. س، ص 200.
[33] - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 201.
[34] - م. س، ص 150.
[35] - م. س، ص 162.
[36] - عبد الملك مرتاض: أدب المقاومة، ج1، ص 189.
[37] - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 17.

وحين، نتأمل الخطاب الشعري- الذي أتينا عليه بالدراسة- نجده يكشف عن صور التقتيل والتذبيح التي اِقترفتها فرنسا في حق شعبنا فقط، بل يظهر صورة الشجاعة لدى الشاعر، حينما يفصح على الإِنتقام للرضيع الذي جوع، وللحامل التي بُقرَ بطنها، وللبنت التي اِنتهكت حرمتها، وللبيت الذي هُدِم، وللمرضعة التي بُتِرت ثدياها، وللحامل التي شُقَ بطنها[38] .

***/التعذيب والتنكيل:**

وإنّا نعتقد أنّ الاستعمار فرض تلك الأساليب غير الإنسانية سعياً منه إلى توقيف الفعل الثوري، الذي أخذ ينمو في نفوس الثوار، فاِزداد معه القمع البوليسي، لهذا حاول الشعر أنّ يقف عند هذه الأساليب الجهنميّة مترصدّاً فضائح المستدمر، ومندّداً بها، ومتوعداً مقترفيها بالثأر[39] .

يقول عبد الملك مرتاض: « إنّا لا نتصور شعباً للإبادة الجماعية ودون مبررات يقتنع بها عامل، ومتحضر، وإنسان، أمام أنظار العالم المتواطئ على الضعفاء، وعلى مرأى من التاريخ الخامل، كما تعرض الشعب الجزائري للتقتيل منذ اليوم الأول الذي وطئت فيه أقدام الفرنسيين الجزائر، وعبر فترات متلاحقة من التقتيل، تخف وتقل حيناً، لتعود فتشرس أحياناً أخرى»[40] .

في خضم هذا الواقع المدمر، برز شعر مفدي زكرياء، ليكشف للأحرار في العالم أساليب التعذيب والتنكيل التي أصبحت تُلقن للجلادين والزبانيّة داخل مدرسة خاصة لتعليم الشرطة وجنود المظلات وهدفها أن يُفتك بأبناء هذه الأمة الضعفاء، يقول مفدي زكرياء[41] :

وفي الجزائر للتنكيل مدرسة تعلم الفتك بالشعب الشياطينا

وباسم القوة وقانون الغاب، أنشأ المستدمر محاكم خاصة، يمرر من خلالها، تلك الفظائع المرتكبة بفعل التعذيب والتنكيل بالمواطنين الأبرياء. يقول زكرياء[42]:

وفي الجزائر للتمثيل محكمة فيها الفظائع سموها قوانينا

ومهما تفنّن المستدمر في إلحاق أساليب التعذيب بالشاعر، كفرد من جماعة للحصول على أسرار تخصّ وضع الثوار وتحركاتهم، فإنّه ظلّ صامداً محافظاً على السر العظيم، يقول مفدي زكرياء[43]:

سرّي عظيم فلا التعذيب يسمح له نطقاً، ورب ضعاف دون ذا نطقوا

بيد أنّنا قد وجدنا الشاعر يتحدى التعذيب، فلا يعيره أي اهتمام، ولا يبالي به، إذا كان في سبيل التضحية، ومن أجل أن يسود الوطن. يقول مفدي زكرياء[44]:

---

[38]- ينظر: بشي أمينة، صورة وعبر- في شعر نوفمبر لجهاد المرأة الجزائرية- في مجلة المصادر، ع5، 2001، ص 92.

[39]-ينظر: عبد الرحمان حوطش، شعر الثورة في الأدب العربي المعاصر، مطبعة المعارف، الرباط، 1987، ص 248.

[40] - عبد الملك مرتاض: أدب المقاومة، ص 175.

[41] - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 150.

[42] - م. س، ص 150.

[43] - م. س، ص 21.

فلا نخشى العذاب ولا نبالي إذا وجب الفدا سجنا وشنقا

ثالثاً: صورة الآخر/ الجندي (الفرنسي):

ترجع أهمية دراسة صورة "الآخر" بوجه عام، وصورة الجندي الفرنسي بوجه خاص، في الخطاب الشعري الوطني المقاوم عند مفدي زكرياء، لتوسع فهمنا للآخر- الجندي، وتعمق رؤية "الأنا"- الإنسان المقاوم نحو تلك القيم الدينية والصور القبيحة التي إلتصقت بشخصية الجندي، حتى غداَ أسيراً في يد الغريزة الشيطانية التي تدفعه إلى اقتراف الشناعات في حق شعب أعزل.

يبدو أنّ صورة "الجندي" في شعر مفدي زكرياء، تتشكل على هيئات متنوعة ومتباينة، حسب طبيعة شخصية كل فرد من أفراد الجيش الفرنسي، فإنعدام المبدأ تنطلق منه صورة الخيانة، ذلك أنه لا يدافع عن قضية عادلة، لذا لا ينتظر منه تحقيق نصر لفرنسا، لإعتبارات مادية، أساسها أنه مجرد إنسان مأجور، لا يختلف عن ماشية تباع وتشترى، يقول مفدي زكرياء[45]:

لا تطمعي النصر من جند سماسرة أيحرز النصر مأجور ومرْتزق؟
جند يبـــــاع ويشترى مثل مـــــــــــاشية يلقى السلاح إذا ما نابه الفرق

وتأكيداً، لما جاء في تحليلنا، يقف الأستاذ يحي الشيخ صالح، موقف الشاهد. يقول:« لا أزال اتذكر حادثة شهدتها، وأنا طفل في حوالي السّابعة من عمري، فقد دخل بيتنا أفراد من الجيش الفرنسي يبدو من سمرتهم أمن بلد أحدهم وقف بالباب يتفقد أي خارج أو داخل، بينما إنصرف ثلاثة آخرون إلى تفتيش المنزل، لكن الذي إسترعى إنتباهي آنذاك. أنهم لم يكونوا يفتشون المنزل جيداً، بل كان همهم تأمل هندسة المنزل العتيق ... مما يدل على أن القضية لا تهمهم، ولم لا؟ وهم مجرّد مأجورين مرتزقين ... »[46].

وما أن يمعن الشاعر النظر في صورة الجندي حتى يلمح مظاهر الشباب، فتنبعث في مخيلته صورة الغلمان المخنثين الذين لا ضمير لديهم يردعهم للإقبال نحو الفحشاء، فهم لا يفكرون إلاّ في الفسوق والمجون، يقول مفدي زكرياء[47]:

جيش من المرد، غلمان، مخنثة أحلاس يدفعهـــا – للزّلة- الشبق
فلا ضمير عن الفحشاء يردعهم إن أيسروا فسقوا أو أعسروا سرقوا

وربما ذهب الشاعر في تصوير هيئة المتمردين حينما طلبوا من حكومتهم أن تجندهم لمحاربة جيش التحرير الوطني، ليتحدث عن جيش فرنسا الذي لا يأبى أن يسميهم غلماناً

---

[44] - م. س، ص 21.
[45] - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 28.
[46] - يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكرياء- دراسة فنية تحليلية- ط1، دار البعث، قسنطينة، 1987، ص 119.
[47] - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 28.

صفتهم السّفاهة، وبهم يكشف الزمان عن إنهيار أركان الدولة واِضمحلال كيانها، يقول مفدي زكرياء[48]:

دعها مع الأيام تحصد زرعها وذر الزمان يعجل اِضمحلالها
وتكالب السفهاء من غلمانهـــا متمردين فزلزلت زلزالهـــــــــــــــا

أمّا القصيدة الموسومة بـ " وقال الله"، فقد وقف فيها ليلقب الجندي الفرنسي بلقب، تردد في شعره أكثر من مرّة، تعبيراً على أنه مخنث لا يحمل من الرجولة، ما يجعله بطلاً مقداماً لتحمل المشاق والآلام. يقول مفدي زكرياء[49]:

وقل للماكرين بها: اِستريحوا فمن يمكر بها يلق الخرابـــاَ
وللجند المعطر: عد سريعـاً وعجل عن معاقلنا اِنسحاباً

بل إنّنا نلفيه في موطن شعري آخر يصف جنود فرنسا بأنهم فصيلة خرفان، لا يملكون من القوة ما يجعلهم يتحدون جنود جيش التحرير الوطني الذين لديهم الشجاعة اللازمة، كي يضعوا جيش فرنسا لقمة سائغة. يقول مفدي زكرياء[50]:

سنمضغ- يا ديغول- جيشك لقمة فجيش فرنسا من فصيلة خرفان

وأمر آخر يجب ألاّ نمضي حتى نثيره للقارىء ليكون على بينة مما أبداه الشاعر وهو يقاوم المحتلين، ويكشف عن صورهم الدنيئة، إنه التوعد بجعل الجزائر مقبرة يسكنها الجيش الفرنسي. يقول مفدي زكرياء[51]:

ونحفر – يا ديغول- قبرا بأرضنا لمن جهلت أحفادهم " دار لقمان"

---

[48] - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، ص 157.
[49] - م. س، ص 39.
[50] - م. س، ص 327.
[51] - م. س، ص 327.